حربٌ نفسيّة [1]

ثمة نظام جيد للكشف عن نواحي لا تزال مجهولة في الإنسان، يتمثل في طرح الموضوع في هيئة مغايرة للمألوف، ومراقبة ردود أفعال الخاضع للاختبار.

فإن أجريتُ مكالمة هاتفية، على سبيل المثال، وسمعتُ صوتًا على الطرف الآخر من الخط يقول (مرحبا)، فإن التجربة ستفتقرُ لأي قيمة علمية أو معلوماتية، لأن الشخص محل الاختبار لم يستجب إلا برد الفعل الاعتيادي، إزاء موقف على نفس الدرجة من الاعتيادية، فتنعدم فرصة التحقق من أي جوانب خفية في شخصيته.

وأسوق فيما يلي عينات من ذلك:

1 – قدمت لصاحب متجر خبز ثمنًا لكمية ضئيلة من الخبز، لا تزيد عن نصف كيلوجرام، أكبر ورقة نقدية متداولة، ورفضت رفضًا قاطعًا قبول المتبقي منها. وانتبهت إلى علامات جشع تظهر على وجه الخباز، تشي باستعداده للانتفاع مما اعتبره جنونًا مني. فأغادر المتجر، لأعود إليه بعد خمس دقائق، برفقة شرطي، وأتهم الخباز برفض إعطائي بقية النقود. وأدقق في علامات غضبه من سلوكي السيئ، وخيبة أمله إزاء محاولة

1 – العنوان الأصلي للقصة هو (A Psychological Crusade) – ترجمها من الاسبانية إلى الانجليزية كلارك م. زلوتشو

الابتزاز المحبطة، وكان خائفًا مذهولًا، يعتذر متلعثمًا، تحت نظرات متشككة من الشرطي الذي لا يعتقد أن أحدًا سيرفض قبول بقية نقود.

وأعطاني الخباز النقود المطلوبة وهو خانع، فأعلنت – برحابة صدر – عن ميلي لاعتبار تلك الواقعة غير السارة منتهية. فقال الشرطي، وقد خاب أمله نوعًا ما: كما تشاء. ولاحظت ما بدا على وجه الخباز من ارتياح كبير[1].

2 – دعوتُ صديقًا لي لتناول العشاء في منزلي، ولما وصل، منعتُه من الدخول، متهمًا إياه بسرقة فتاتي التي كنت فعلًا أحبها بجنون، وكان ذلك قبل اثني عشرة أو أربع عشرة سنة. ورحتُ أراقب ما اعتراه من دهشة، إذ لم يمر على تعارفنا إلا شهور قليلة، ومن تردد في قبول ما أدعيه، وما بدا عليه من أسىً وانفعال.

3 – صعدتُ إلى الحافلة، وكان السائق حريصًا على إبقاء عينيه على حركة المرور، فلما مد يده ليحصِّلَ مني قيمة بطاقة الركوب، أسقطتُ فيها رقعة شطرنج وغصنا من البقدونس. والسؤال المطروح هو: على أي نحو يتقبل سائق الحافلة، وهي في العادة شخص يعاني التوتر العصبي، ما قدمته له في مقابل البطاقة؟.

---

1 – هنا تجدر الإشارة إلى أننا نعالج مجرد افتراض لا أكثر، وقد تصادف أن تصرف ذلك الخباز على هذا النحو، وربما اختلف السلوك في حالة خباز آخر، لا يخيفه الشرطي، فيروح يؤكد بوقاحة أنه أعطاني باقي المبلغ.

4 – قمتُ برحلة إلى منتجع فاخر، حيث أقمتُ في واحد من أكبر الفنادق. وما إن أستقر بالفندق، وتغادر الخادمة حجرتي، حتى أنقل الفراش إلى الردهة، وأروحُ في قيلولة منعشة، أستحقها على نحو خاص بعد هذه الرحلة المرهقة إلى هناك.

5 – استخدمتُ مفتاحًا هيكليًا، يفتح مختلف الأقفال، وسمحت لنفسي بالدخول إلى أي منزل، في غياب المُلاَّك، وأنتظرهم وأنا جالس بهدوء، أدخن وأشرب الويسكي وأشاهد التلفاز. وما إن يصل الأشخاص المقصودون بالاختبار حتى آخذُ في توبيخهم بقسوة، وأهز قبضتي في وجوههم وأنا أقول: أي شيطان هذا الذي سوَّل لكم الدخول إلى بيتي؟. وأروح أطالبهم، وأنا لا أبدي اهتمامًا بما يسوقونه من تفسيرات، أو مع اهتمامي بها، فلا فارق، بإظهار وثائق ملكيتهم للمنزل. بل إنني لا أسمح لهم بفتح الدرج الذي يزعمون ساخرين أن به الوثائق، قائلًا إن الدرج هو جزءٌ من قطعة أثاث في منزلي، غير قابلة للتصرف فيها والمساومة بشأنها، وبالتالي فليس ثمة احتمال لأن يحتوي الدرج على شيئ يتعلق بملكية منزل لأشخاص غرباء، تحيطهم الريبة، وربما هم من المجرمين وأعضاء معروفون في عالم الرذيلة والإجرام .. الخ.

6 – أتعرف بفتاة متأنقة، وإن كانت سخيفة، ويمكن القول بأنها جميلة جدًا. وأطلب منها موعدًا، وأخبرها بأنني أحبها. أصير خطيبها، ويحين موعدُ خطبتنا، ويقام الحفل في منزلها، حيث شُرِبت الأنخاب، واحدًا فثانيًا

فثالثًا. وأخيرًا تأتي اللحظة التي طال انتظارُها، عندما يُقدم الخطيبُ، وهو ولدٌ طيب، إن كان كذلك حقًا، لخطيبته المفاجأة الجميلة التي جرى حديث طويل بشأنها.

وأمدُّ يدي، وأنا أبتسم في حب وسعادة، بعلبة كبيرة، فتختبر العروس مدى وزنها، وتبدو راضية، بينما يكسو الفضولُ الشديد وجوه الضيوف، الذين شكلوا حولها دائرة، وتدافع النساءُ نحو العروس المنتشية. وسرعان ما يتلاشى الورق المغلفة به الهدية، ومعه العقدة التي كانت تزينه، لتبدو للعيان علبةٌ فاخرة مبطنة بالشمواه الأسود.

قالت حبيبتي: إنها لجوهرة ثمينة. كان ذلك اعتقادها، وأنا أرى بريق الطمع في عينيها، مما يعني رضاها عني مقدمًا.

وتسرع أصابعها لتفتح قفل العلبة الذاتي، فيندفع الغطاء مرتفعًا لتنطلق أفعى مرجانية جميلة نزقة متعددة الألوان وشديدة السُّمِّيَّة، تنزلق وهي تتلوى على امتداد ذراعي حبيبتي العاجيين، بحثًا عن الحرية.

7 – أنتظر حتى يتواجد مدير الشركة التي أعمل بها في مكتبه الرائع المغطى بالسجاد، يتحدث إلى أهم عميل لديه، ويوشك أن يتم معه صفقة شراء بمبلغ فلكي. وأدق الباب على استحياء، فأسمع: أدخل. فأدخلُ بخطوات حذرة خجلة، وأقول بإيماءة مبتسمة متحفظة: معذرةً يا سيدي. وأتجه إلى الخزانة الخشبية الفخمة، فأفتحها وأتبوَّلُ بغزارة على ما بها من

محافظ أوراق وكتب ومعدات وعقود ووثائق وأوراق لا يهمني إن كانت مهمة أم لا.

وبالطبع، فثمة بعض تنويعات على درجة كبيرة من البساطة، أسردها من أجل أولئك الذين قد لا يزالون يفتقرون إلى الممارسة اللازمة، وقد يرغبون في تبني هذه الحرب النفسية. وفيما يلي بعض منها ..

= إبداء ملاحظات عاطفية، أو حتى مثيرة، للأفراد المتزمتين أخلاقيًا بغض النظر عن أعمارهم وجنسهم.

= التمسك بالوقوف طول اليوم فوق الميزان في الصيدلية، وعدم السماح لأي شخص بأن يزن نفسه.

= شراء مائتي جرام من السجق، مقطعة كشرائح رقيقة، واستخدام هذه العبوة من الشرائح الحمراء الجميلة في رسم قلب مكتوب عليه (أحبك)، على طاولة الأطعمة المحفوظة.

= عند ركوب الحافلة، إختر مقعدًا بجانب الممر، وانتظر حتى يتهيأ جارك – رجلا كان أو امرأة – للنزول، ويطلب منك أن تدعه يمر، قائلا لك: من فضلك. فتجيب بشكل قاطع: لا. رافضًا السماح له بالمرور.

وقد تتسبب الحرب النفسية في قدر ما من القلق، وهي لا تختلف في ذلك عن أي حرب، مما ينطوي بداهةً على صعوبات خطيرة يواجهها المرء، وهذا هو شأن الحرب النفسية. ولكن، ما قيمة هذه المضايقات عند مقارنتها ببهجة مراقبة ردود الأفعال التي تثيرها هذه الحرب؟.

وعلى أي حال، فذلك ما أتخيله، مع اعترافي بأنني لست أكثر من مجرد مُنظِّرٍ، ومن المحتمل ألا أضع أفكاري موضع التنفيذ أبدًا. ولكنك تستطيع، وعليك أن تفعل.